

## سليم تماري\* مع ناقة الله في سيبيريا جندي عثماني مقدسي في المنفى الروسي خلال الحرب العالمية الأولى

تندرج هذه المقالة في سياق الجهد البحثي لإزالة الركام عن "التاريخ المجهول" لبعض الشخصيات الفلسطينية. ويكشف الكاتب جوانب من تاريخ عارف العارف ظلت خافية على كثير من الدارسين، ولا سيما اعتقاله في سيبيريا، وانقلابه على "الفكرة العثمانية"، وتحوله إلى "الفكرة العربية" بعد ثورة الشريف حسين بن علي سنة 1916. وتسرّد هذه المقالة وقائع الأحداث التي وقعت لعارف العارف منذ أن تجند في الجيش العثماني، وإرساله إلى القتال في جبهة القفقاس، ثم أسره في سيبيريا حتى خروجه من المعتقل بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، وعودته إلى القدس واتصاله بالحركة القومية العربية في دمشق. ويعقد الكاتب مقارنة بين ساطع الحصري وعارف العارف؛ الأول في ثباته على القومية العربية، والثاني في تحوله مرة ثانية، عن ضم فلسطين إلى سورية الكبرى، إلى تكيفه مع الانتداب البريطاني، ومع فكرة فصل فلسطين عن بلاد الشام.

تميزت الحقبة العثمانية المتأخرة وبدايات الانتدابين الفرنسي والبريطاني بظهور نمط من المثقف السياسي في الحيز العام كاد يختفي من الوجود خلال مرحلة الاستقلال في المشرق العربي. وقد احتل الناشط الحزبي مكان هذا المثقف في الفترة اللاحقة، وهو ما اصطلح على تسميته بـ "المثقف الملتزم" في الأحزاب البعثية والناصرية والقومية السورية والشيوعية، وبين المثقفين المقربين إلى هذه الأحزاب من دون أن ينتموا إليها تنظيمياً. المثال البارز لهذا المثقف السياسي من الفترة العثمانية هو أبو خلدون ساطع الحصري (1881 - 1967) المنظر الطليعي للقومية العربية الحديثة، وصاحب دراسة "يوم ميسلون" عن المعركة التي اعتبرها الحصري المرحلة المفصلية في هزيمة أول دولة عربية وحدوية حديثة وأقولها. عاصر الحصري الحركات الإصلاحية العثمانية اللاحقة، وكان عضواً فاعلاً ومؤسساً لحزب لجنة الاتحاد والترقي العثماني في سنة 1905، (1) وهو من المثقفين العرب القلائل الذين ارتبط اسمهم بالانتماء العثماني والبعث القومي العربي معاً.

هنا مكان الصورة الأولى

تميز هؤلاء المثقفون الأوائل بانغماسهم الفكري والسياسي في الحيز العام في غياب أحزاب سياسية أو حركات جماهيرية مرافقة لها. وكانت أدواتهم النضالية كتاباتهم الصحافية في محيط حضري سادت فيه الأمية، وعضويتهم في جمعيات ونوادٍ اجتماعية وأدبية انتشرت في حواضر الدولة العثمانية وفي مدن المهجر (المنتدى الأدبي؛ الجمعية العربية؛ العروة الوثقى؛ مقهى الصعاليك؛ الجمعية القحطانية). كما تدرّب عدد غير قليل منهم في الكليات العسكرية، وخدم في صفوف الجيش العثماني خلال الحرب العظمى. كان للكليات العسكرية شأن مهم في تبلور شبكة التنظيم والتعاقد بين أبناء المجموعات الإثنية المترامية في أنحاء الدولة العثمانية، وأهمها في المشرق العربي هو "جمعية العهد" السرية العسكرية. كما أدت هذه الكليات دوراً لا يقل أهمية في تنشئة طلابها على مفهوم المواطنة العثمانية الحديثة المبنية على قاعدة تعدد الإثنيات داخل الفكرة العثمانية الواحدة الموحدة. وقد خدم معظم هؤلاء المثقفين كإداريين وضباط في القطاع العام العثماني، وانتقل العديد منهم إلى الخدمة في الدولتين الانتدابيتين الفرنسية والبريطانية بعد الحرب العالمية الأولى. الجدير بالذكر أن البيروقراطية العثمانية بعد الثورة الدستورية (1908) كانت أكثر مرونة في توفير الحراك والترقية لكوادرها المتعلمة من الإدارات الانتدابية، على الرغم من دورها في فرض استعمال اللغة التركية في النظام الإداري للمناطق العربية. كما سمحت الإدارة العثمانية لكوادر الجهاز الإداري بالانتماء إلى أحزاب سياسية مختلفة، والتعبير عن آرائهم سياسياً. وبشكل عام، لم تكن الخدمة في الجهاز الحكومي عائقاً أمام هؤلاء المثقفين من أتراك وعرب وآخرين يحول دون التعبير عن طموحاتهم القومية (في حدود معينة)، أو معارضة الحكومة المركزية في سياستها العامة.

## هنا مكان الصورة الثانية

يكفي ذكر بعض أسماء هؤلاء المثقفين العثمانيين لمعرفة معنى اختفاء النمط الثقافي الذي ارتبطت أسماؤهم به: ساطع الحصري (في حلب وإستانبول وبغداد)؛ رستم حيدر (في بعلبك ودمشق وبغداد)؛ روجي الخالدي (في إستانبول والقدس)؛ محمد عزة دروزة (في نابلس وبيروت)؛ محمد ضياء الخالدي (في إستانبول والقدس)؛ خليل السكاكيني (في القدس ودمشق والقاهرة)؛ فالج رقيقي أتاي (في إستانبول ودمشق والقدس)؛ خالدة أديب (في بيروت وأنقرة).

وسنعرض فيما يلي، لمرحلة حاسمة في سيرة الضابط العثماني المقدسي عارف شحادة (1892 – 1973) الذي عُرف فيما بعد بالمؤرخ عارف العارف، (2) فقد تميزت حياته العامة بأنها جسرت الحقب العثمانية والاندلسية والأردنية والمصرية، وفترة الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. وبما أن كتابات العارف (من مذكرات ومقالات صحافية وكتب تاريخية) عبّرت عن خطاب قومي اختلف في جوهره عن مواقفه المعلنة ونشاطه خلال الحرب العظمى وقبلها، حين كان ملتزماً بالوطنية العثمانية، وعن وصفه لهذه الفترة في مذكراته اللاحقة، فمن المفيد أن نعاين هذه الفترة التأسيسية من حياته لمعرفة جذور وتحولات الفكر القومي في بلاد الشام في مرحلة الحرب وبُعدها. وبما أن العارف كان أمضى معظم فترة الحرب، وتحديدًا سنوات 1915 – 1918، في الاعتقال الروسي (وهي الفترة التي تعالجها هذه الدراسة)، فلا شك في أن التجربة الاعتقالية ستلقي ضوءاً جديداً على نمو التيار العربي الانفصالي خارج إطار جبهة القتال وحدود الدولة.

يشترك العارف مع الحصري في تلقي تعليمه الثانوي والعالي في الآستانة، كما اشتركا في موالاته النظام العثماني، وفي التعاطف أو الانضمام (في حالة الحصري) إلى حزب الاتحاد والترقي. وعلى غرار الحصري، انشق العارف عن ولائه العثماني وانضم إلى الحركة العربية الاستقلالية بزعامة الأمير فيصل، ثم خدم الاثنان في وظائف الانتداب البريطاني (الحصري في العراق والعارف في شرق الأردن وفلسطين). هنا يفترق الاثنان، إذ بينما أصبح الحصري الداعية والمنظر الرئيسي للفكر القومي العربي، اتجه العارف نحو التأقلم مع واقع التجزئة الذي ساد المشرق العربي بعد سايكس بيكو، والذي تخلّله فترة وجيزة من النضال في سبيل وحدة سورية الطبيعية، فقام بدور مهم في تكوين حكومة شرق الأردن في بداية نشأتها (1926 – 1929)، ثم تبوأ عدة مناصب إدارية في حكومة فلسطين الانتداب. ومعرفتنا عن الفترة التكوينية في حياة العارف تركزت إلى مسودات وشذرات كتبها عن حياته في مراحل متعددة، ثم أعاد صوغ بعضها في ضوء التطورات اللاحقة في حياته.

## من هو عارف العارف؟

ولد عارف شحادة في القدس في سنة 1892، وأرسل لمتابعة دراسته الثانوية في الآستانة، ثم درس الأدب في جامعة إستانبول حيث حصل على شهادته الجامعية سنة 1913، وعند تخرجه عمل محرراً ليلياً في صحيفة "بيام" التركية. وفي إستانبول انضم إلى المنتدى الأدبي (وبحسب يعقوب العودات كان العارف أحد مؤسسيه) الذي كان تجمعاً نشطاً لمثقفي بلاد الشام اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين في العاصمة (3) وبعد تخرجه من جامعة إستانبول، عُين مترجماً في وزارة الخارجية العثمانية. وباندلاع الحرب العظمى، انخرط في الكلية العسكرية في إستانبول، فتخرّج منها بعد عام، ثم التحق بقوات الرديف (الاحتياط) للجيش العثماني، ونقل بعد ذلك إلى الجيش الخامس، وأرسل إلى القتال في جبهة القفقاس ضد القوات الروسية. اعتقل شحادة في إحدى المعارك (التفصيلات أدناه)، وأمضى ثلاثة أعوام كأسير حرب في سيبيريا.

انتهت فترة اعتقاله باندلاع الثورة البلشفية، وعندما تم تحريره (أو هربه في بعض الروايات) عاد إلى الوطن في رحلة طويلة من منشوريا واليابان وبحر الهند وقناة السويس، حيث انضم إلى الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل. وفي القدس، قام بتحرير صحيفة "سورية الجنوبية" الفيصلية، وانخرط في النضال ضد الحكم العسكري البريطاني وإعلان بلفور، الأمر الذي أدى إلى إصدار حكم بالإعدام عليه وعلى بعض رفاقه بتهمة دعم العصيان المسلح، فاستأنف الحكم الذي خفف إلى السجن، لكنه هرب من فلسطين إلى شرق الأردن وإلى دمشق. في النهاية تم العفو عنه وعن زميله الحاج أمين الحسيني، وتقلد عدة مناصب مهمة في الحكومة أهمها قائم مقام بئر السبع وغزة ويافا.

وفي عشرينيات القرن الماضي، تمت إعارته إلى حكومة شرق الأردن الحديثة العهد حيث تقلد منصب سكرتير المجلس الوزاري في الحكومة. وتوفر لنا يومياته الخاصة عن حياته في سيبيريا (1915 – 1918) وعمله في شرق الأردن (1926 – 1929) نافذة مهمة عن هذه الحقبة في تاريخ البلاد العربية. ويجب مقارنة هذه اليوميات (غير المنشورة) بسيرة العارف "الرسمية" والمبنية على مذكراته التي دونها بعد فترة الحرب. (4) وفي هذه المقارنة سنجد مفارقات ورؤى متضاربة، كان من الطبيعي أن تتبلور في كتابات صحافي وسياسي ومؤرخ عاش تحولات المرحلة الأولى من القرن العشرين، أي في فترة انهيار الدولة التي خدمها بانتمائه الوجداني والتزامه العسكري.

### تربية الضابط شحادة: "وجدت عربتي في إستانبول".

تلقى عارف شحادة تعليمه الابتدائي الأول في المدرسة المأمونية في القدس الشريف، وكان والده شحادة بن عبد الرحمن بن مصطفى العارف، التاجر المعروف في البلدة القديمة في القدس، قد أرسله إلى إستانبول بعيد إقصاء السلطان عبد الحميد عن الحكم في سنة 1909، لتلقي العلم، وكانت حينذاك "قبلة شبان العرب والأترك والأرمن والأكراد واليونان والألبان" بحسب قول العارف. (5) واستطاع عارف الشاب خلال تلك السنوات (1909 – 1913) أن ينهي دراسته الثانوية في المكتب السلطاني المعروف بـ "نمونة ترقى"، ثم انتقل إلى جامعة إستانبول حيث حصل على شهادته الجامعية في سنة 1913. وخلال دراسته الجامعية اشتغل محرراً في الصحافة التركية ليسد نفقات تعليمه. (6)

هنا مكان الصورة الثالثة

أصر العارف في كتاباته اللاحقة على أن انتماءه العروبي في فترة الدراسة تمحور حول الإيمان بمستقبل مستقل للأمة العربية، إلا إن معاناة دقيقة لكتابات ومذكراته الشخصية في الفترة الأولى تعطينا صورة مختلفة. فالمنتدى الأدبي الذي انتمى إليه مع زمرة من رفاقه في إستانبول (وفي بعض الروايات أنه أسسه مع عبد الكريم الخليل)، (7) كان من ثمرات الثورة الدستورية سنة 1908، فقد أمنت الأغلبية من أعضائه بفكرة اللامركزية العثمانية وليس بالانفصال عن الأستانة. (8) كما أن التحاقه بالكلية العسكرية، وخدمته لاحقاً في صفوف الجيش كضابط في الجيش الخامس (في فترة كان في استطاعته أن يتفادى هذه الخدمة عن طريق دفع البدل النقدي) مؤشراً إلى إيمانه بوحدة السلطنة والدولة العثمانية. ولا شك في أن إجادته اللغة التركية، وعمله في الصحافة التركية، أدياً دوراً مهماً في ارتقائه صفوف البيروقراطية العثمانية، وفي تماثله مع تيارات الثقافة العثمانية.

وحول انتمائه العروبي في تلك الفترة كتب في مذكراته: ما عرفت أنني "عربي" وأنه يجب عليّ أن أفكر في مصلحة قومي العرب إلا عندما تأسس "المنتدى العربي" في الأستانة وإني لأنكر أن مؤسسيه كانوا أربعة هم: عبد الكريم الخليل ويوسف مخبير وجميل الحسيني وسيف الدين الخطيب، وقد سجل اسمي صديق لي في عداد أعضائه، فرحت أتردد على ذلك المنتدى، وكان الشعور القومي قد عم الطلاب العرب، ورحت أسمع في جنباته كلمات "العرب"، "العروبة"، "القومية"، "الوطن". (9)

جاء هذا في مذكراته التي دونها بعد الحرب العالمية الأولى. ومن المرجح أن الانعطاف الكبير في الوعي القومي عند الكاتب لم يحدث خلال دراسته الجامعية في إستانبول – كما ورد في سيرته التي نشرها يعقوب العودات – ولا في فترة عمله في الصحافة التركية، ولا خلال خدمته في ديوان وزارة الخارجية العثمانية، حين بدأ نجمه يلمع في خدمة جهاز الدولة، (10) بل على الأغلب، حدث هذا الانقطاع الجذري عن تيار العثمانية في إبان اعتقاله في جبهة القفقاس، ونفيه إلى أصقاع سيبيريا. ففي الأستانة كان العارف عضواً في المنتدى العربي، كما كان صديقاً مقرباً من عبد الكريم الخليل – رئيس النادي. وكان الخليل بدوره ناشطاً في حزب اللامركزية العثماني الذي كان – في تلك الفترة على الأقل – ينادي بالوحدة مع حزب الاتحاد والترقي الحاكم. وليس لدينا أي دليل على أن العارف انتسب إلى أي من هذين الحزبين على الرغم من تعاطفه مع أعضائهما. إلا إن دخول الدولة في الحرب العالمية كحليفة لدولتي المحور (ألمانيا والنمسا) في خريف سنة 1914، دفعت بالمنتدى الأدبي ورئيسه عبد الكريم الخليل إلى اتخاذ موقف مؤيد للدولة، وإلى تعليق المطالبة بالإصلاحات الإدارية في الولايات العربية خوفاً من أن تفسر هذه المطالب على أنها محاولات انفصالية في سياق الجو الحربي المشحون. (11) وفي خلال الحرب، بدأ أعضاء

المنتدى - كما هي الحال في التجمعات الإثنية العاملة في الأناضول وإستانبول حينذاك - بالتأثر بالأجواء الانقسامية التي عصفت بحزب الاتحاد والترقي وحزب اللامركزية العثماني، الأمر الذي أدى بجناح الأغلبية في الحزب الأخير، والمتمركز في القاهرة، إلى اتخاذ موقف يدعو إلى الانفصال عن السلطنة العثمانية.

### حياة المنفى في سيبيريا

بعد تخرّج عارف شحادة من الكلية العسكرية في إستانبول، أُرسِل إلى القتال ضد الروس في جبهة القفقاس، ثم أُسر في أرضروم، بعد معركة دموية أُبِيدت فيها كتيبة كاملة باستثناء أحد عشر مقاتلاً كان هو أحدهم. (12) يروي شحادة تجربته في الأسر السيبيري في كتابه "رؤياي"، وهو نص قليل التداول كتبه في كانون الأول/ديسمبر 1918 بعد "هروبه" من الاعتقال الروسي بعد الثورة البلشفية في روسيا. (13) لقد كانت عملية نقل الأسرى العثمانيين من جبهة القتال إلى سيبيريا تجربة رهيبية، فبحسب المؤرخ التركي يوجيل يانيكداغ ( Yücel Yanikdag) لم يصل إلا واحد من كل أربعة جنود عثمانيين إلى المعتقل في شتاء سنة 1915، أمّا الباقيون فقد قضى عليهم الجوع والعطش والأمراض التي تعرضوا لها في الطريق إلى سيبيريا. (14) واللافت أن هذه النسبة أعلى كثيراً من نسبة هلاك الجنود الأوروبيين الآخرين المعتقلين في الجبهة الروسية. (15)

يعزز الملازم شحادة هذا التقويم في مذكراته: "أخذونا إلى معسكر الاعتقال الرئيسي في كراسنويارسك قرب شواطئ نهر ينيسي في أواسط سيبيريا. أمضيت ثلاث سنوات في معسكر ويوني غوردوق حيث كان الطعام والبرد لا يحتمل. وقد أحيط المعسكر بسور حديدي وأسلاك شائكة". "هنالك في (كراسنويارسك) على شاطئ نهر ينيسي وفي معتقل أقامه الروس خصيصاً لأسرى الحرب وقد أسموه (ويوني غوردوق) بقيت مسجوناً ثلاثة أعوام نقت خلالها ألوان العذاب، من جراء البرد تارة، والجوع تارة أخرى، ومن جراء البعد عن الأوطان... وهذا لعمرى هو الطامة الكبرى. أحاط الروس معتقلنا بسيج منيع من الأسلاك الشائكة، ونصبوا حوله الأبراج العالية وفي البروج جنود مدججون بالسلاح يرقبون بعين ساهرة كل حركة من حركاتنا. وقد حظر علينا الاقتراب ليس من البروج فحسب، بل ومن السياج كله. ذلك خشية الهرب وبالحري خشية أن نختلط بالشعب الروسي فندرس حياته الاجتماعية وطرق معيشته والحيث النازل به، والنظم الاستبدادية التي سنّها القيصر وعماله للقضاء على الحرية." (16)

بعد استقرار الأسرى العثمانيين في المعسكر أصبحت الرقابة على الجنود أقل صرامة، وتحسنت أحوال الاعتقال بصورة ملحوظة. وفي السنة الثانية للاعتقال كتب العارف مشيراً إلى هذا التغيير: "... كنا في معتقل واحد ثلاثة آلاف وخمسمئة أسير. وكانت لنا ملاعب لكرة القدم، وأخرى للعدو والقفز وغيرها من وسائل اللعب واللهو. وكانت لنا قاعة كبيرة للمحاضرات، وأخرى للمسامرات، ومسرح للتمثيل، ومكتبة فيها كتب قيمة. وقد أصدرت أنا من غير إذن من السلطة جريدة هزلية أسميتها (ناقة الله) صدر منها خمسون عدداً. ثلثها هزل وثلثاها جد." (17) خلال فترة اعتقاله، استمر العارف في الكتابة إلى أهله في القدس من خلال الهلال الأحمر العثماني، وكان يكتب الرسائل الموجزة بالتركية العثمانية وبالفرنسية إلى أبيه شحادة وأخيه سليمان. وبسبب الرقابة الشديدة على المراسلات من كل من الرقباء الروسي والنمساوي والعثماني، كانت هذه المراسلات تقتصر على الأخبار الصحية للعائلة، وعلى طلبات الكتب والجرائد من أرض الوطن، ومن خلالها علم عارف أن أخاه يدرس في الكلية الصلاحية، وأن صحة أمه وأخواته بخير على الرغم من الأوضاع الصعبة التي عاشتها القدس خلال الحرب. (18)

### هنا مكان الصورة الرابعة

مع مضي الوقت، استطاع العارف، وبواسطة الضابط البولندي في الجيش القيصري، الكولونيل كارول ريبا، أن يحصل على إذن عسكري خاص سمح له بمغادرة المعسكر خلال ساعات النهار كي يعلم هذا الضابط اللغة التركية. إن أوضاعه الجديدة هذه، أتاحت له كسب بعض النقود وحرية الحركة، وقد استطاع في نهاية السنة الثالثة لاعتقاله، أن ينتقل إلى السكن في شقة خاصة في كراسنويارسك. وتشير الصور الفوتوغرافية التي جلبها معه من المعتقل إلى أنه كوّن صداقات عديدة بين معارفه الروس في البلدة، بما فيها مع عائلات روسية وشابات كان يدعى إلى بيوتهن في المناسبات الاجتماعية، كما يظهر في بعض الصور وهو يحتفل بمقدم رأس السنة الجديدة. واستطاع أيضاً أن يستفيد من مرافق المعتقل ليتعلم اللغتين الروسية والألمانية، وقد تطورت لغته الألمانية إلى درجة أنه

استطاع ترجمة كتاب "معضلة الكون" للعالم والفيلسوف الطبيعي الألماني أرنست هيغل، وهو من أتباع النظرية الداروينية، ونشر الكتاب باللغة التركية سنة 1917.

عالم المؤرخ بيتر غاتريل أوضاع الجنود الأسرى المعتقلين في روسيا خلال الحرب العالمية الأولى، ولاحظ أن دراسة التجربة الاعتقالية تسمح لنا بمعرفة نتائج غير متوقعة للأسر، في ضوء الشعور بالذنب الذي عاناه العديد من السجناء، ومنها علاقات التضامن، وتعزيز هويات فردية وجماعية جديدة، وأبعاد نفسية لم تكن عرفت حتى تلك الفترة بعد. (19) وهو يرى في كثير من مذكرات هؤلاء الجنود "رحلة اكتشاف الذات". (20) وسأعالج هنا هذا التأثير في أسرى بلاد الشام، انطلاقاً من تجربة الملازم عارف شحادة وآخرين من رفاقه. ولا شك في أن أهم معالجة لأوضاع الأسرى العثمانيين في سيبيريا هو دراسة الكاتب التركي يوجيل يانيكداغ، (21) فهي تعزز ما شاهده ودونّه الملازم شحادة في أوراقه الخاصة قبل 80 عاماً، لكنها تضيف أيضاً السياق العام الغائب في سرد العارف، لما كان يحدث في معسكرات الاعتقال الروسية. فمن أهم الأسباب التي توخاها الروس لعزل السجناء بحسب أصولهم الإثنية والقومية كان توفير حوافز نفسية للعمل. وبما أن النظام القيصري استخدم الجنود العاديين للعمل في المناجم، وفي مد السكك الحديدية، وحفر الترع والقنوات، فقد افترض أن الأسرى يعملون بكفاءة أعلى إذا كان محيطهم يشكل "ثقافة ولغة مشتركة". (22) ويقدم المؤرخ يانيكداغ وصفاً مفصلاً للحياة في معسكر كراسنويارسك، وهو أكبر المعتقلات في سيبيريا، والذي أمضى فيه العارف معظم فترة اعتقاله.

بداية يتم عزل الأسرى من الضباط والقادة العثمانيين عن الجنود العاديين، وتخصّص رواتب شهرية للضباط تتراوح بين 50 و100 روبل تدفع بحسب الرتبة - وهو مبلغ موزان لما كان يدفعه العثمانيون إلى معتقليهم من الجنود الروس. (23) في الفترة الأولى من الاعتقال، لم يحدث أي مشادات تذكر بين الجنود العثمانيين، إذ كان الشعور الديني يعزز تضامنهم، كما أن العداوة الروسية التقليدية ضد العثمانيين، من خلال سلوك السكان المحليين، كان له دور مهم في التعاضد بين الأتراك والعرب. (24) من ناحية أخرى، يرى يانيكداغ أن التوتر الرئيسي حينذاك كان بين نخبة من الضباط العثمانيين المعروفين بمجموعة مكتبلي، وهم الضباط المدربين في المكاتب العسكرية السلطانية، والذين شكلوا العمود الفقري لأنصار حزب الاتحاد والترقي (تركية الفتاة)، وبين ضباط الأيالي التقليديين الذين حاولت الثورة الدستورية أن تهمشهم في قيادة الجيش قبيل الحرب. (25)

نستطيع أن نستخلص أنه كان للدين دور إيجابي في محيط معاد، وأن الأسرى العثمانيين من المجموعات العرقية كلها، عانوا أقل كثيراً، جراء الصراع الاجتماعي - الطبقي الذي ساد في الفترة نفسها، في أوساط الجنود المعتقلين من ألمانيا والنمسا، والذي أدى دوراً مهماً في انتشار الفكر الشيوعي بينهم. لكن مع تراكم أخبار العمليات العسكرية في الحرب، برزت صراعات واضحة بين الجنود العرب والأتراك غداً عاملان: أحدهما المحاباة الروسية الواضحة للضباط العرب، وثانيهما أنباء الثورة العربية في الحجاز وسورية (في حزيران/يونيو 1916)، والتي وصلت إلى المعتقل وغذت هذا التوتر. ولا شك في أن سقوط بغداد في يد الجيش الإنكليزي وحلفائه العرب، في كانون الثاني/يناير 1917، كان حدثاً مدياً في هذا السياق. (26)

أمّا سبب المحاباة الروسية للعرب فيعتقد يانيكداغ أنها مرتبطة سلباً بالدعم الذي وفرته الجوالي الروسية التركمانية المسلمة في سيبيريا للمعتقلين الأتراك. إلا أنني أعتقد أن التفسير الأكثر احتمالاً يتعلق بسياسة روسيا القيصرية المتنافسة مع حلفائها الإنكليز والفرنسيين من أجل كسب مواقع نفوذ في الشرق الأوسط بعد الحرب، حيث كانت تحاول أن تبني جسوراً مع المجتمعات العربية من خلال الضباط الشاميين في معتقلاتها - تماماً كما حاول البلاشفة، فيما بعد، تجنيد هؤلاء الجنود المعتقلين لحمل راية الاشتراكية في المشرق العربي.

كتابات يانيكداغ تكمل أيضاً الصورة التي رسمها الملازم شحادة في مذكراته عن تنوع النشاط الاجتماعي والثقافي في معسكر كراسنويارسك والمعتقلات السيبيرية الأخرى. (27) فقد كتب الضباط - بحسب رواياته - عدة مجموعات مسرحية، ونظموا حفلات موسيقية مرافقة، كما انتشرت النوادي الرياضية، وخصوصاً فرق كرة القدم التي كانت تتنافس وفقاً لـ "انتمائها القومي". فالنمساويون والهنغاريون كانوا يتبارون ضد العثمانيين، وهؤلاء الأخيرين كان لديهم عدة فرق - مقسمة كما يبدو بحسب انتمائها الإقليمية. علاوة على ذلك، احتوى كل معسكر رئيسي على مكتبة كانت، في الأغلب، تمول بدعم من الصليب الأحمر السويدي وجمعية الشبان المسيحية. والأهم من ذلك كان طباعة الصحف اليدوية وجراند الحائط باللغتين العربية والتركية وتوزيعها:

في كل معسكر كنت تجد على الأقل جريدة عثمانية تنتج محلياً. في كراسنويارسك مثلاً، انتشرت صحيفة كانت تدعى "كورتولوس" (التحرير بالتركية)، وكان لها شعبية واسعة بين المعتقلين. وقد ظهرت فيها، إضافة إلى أخبار

الوطن والجهة الحربية، مقالات عن مجتمعات آسيا الوسطى وتاريخ الشعوب التركية، وكان العديد من هذه المقالات يتسم بالصبغة الوطنية، ويعكس بروز التيار التركي القومي بين أغلبية الضباط. (28) من المرجح أن يكون نجاح جريدة "كورتولوس"، والتزامها تعزيز الهوية التركية بين المعتقلين من جنود وضباط، ساهما بظهور صحيفة "ناقة الله" في كراسنويارسك كردة فعل عربية قومية. فقد انتشرت هذه الصحيفة سراً بين الجنود الشاميين في سيبيريا، وكانت، بحسب كلمات العارف، "ثلثها هزل وثلثاها جد. وما أصعب الحياة في ديار الأسر وأعماق السجون إذا لم يتخللها هزل ومجون". حرر العارف الجريدة بالتعاون مع رفيقه السوري أحمد الكيالي، وصدر منها 45 عدداً (وفي رواية أخرى 50 عدداً) بين رجب 1335 (1916) وجمادى الثانية 1336 (1917). وتصدرت الصحيفة صورة جمل تائه في أصقاع سيبيريا، وتحته عبارة "جريدة أدبية انتقادية هزلية تصدر مرة في الأسبوع"، وكانت توزع في كراسنويارسك وفي ويوني غوردوق. وكان ثمن النسخة ثلاثة كوبيكات، والاشترك السنوي روبلاً واحداً. وظهر في أعلى الصحيفة رقم "تلفون الإدارة" رقم 49! (وهي نكتة على الأرجح)، كما قبلت الصحيفة إعلانات تجارية في مقابل خمسة كوبيكات للسطر الواحد.

هنا مكان الصورة الخامسة

من اللافت هنا اختيار المحررين عنواناً قرآنياً لجريدتهما على الرغم من انتمائهما العلماني حينذاك، فـ "ناقة الله" إشارة واضحة إلى المعجزة التي استجاب الله من خلالها لصلوات النبي صالح حين تحده قوم في الصحراء القاحلة طالبين منه أن يجلب لهم ناقة تدر الحليب، فأرسل الله ناقة لإسكات المشككين (انظر سورة هود). (29) نرى في هذا الاختيار أيضاً توافقاً مع رأي يانكيدياغ فيما يتعلق بدور الانتماء الإسلامي كعنصر توحيدي وتعاضدي بين المعتقلين، على الرغم من أن أقلية صغيرة بين الأسرى الضباط المسلمين في السجن (30 ضابطاً من مجموع 400 ضابطاً) كانت تصوم خلال شهر رمضان. (30)

هنا مكان الصورة السادسة

### البلاشفة قادمون: هروب من الثورة أم تحرير؟

يأتي سياق هروب الملازم شحادة من المعتقل في سيبيريا، في خضم الثورة البلشفية في أكتوبر 1917. وفي إفادته إلى يعقوب العودات، يعطينا عارف العارف الوصف التالي للهروب - بضمير الغائب: في آخر سني أسره تناهت إليه أنباء عن قيام الثورة العربية التي أعلنها شريف مكة الحسين بن علي على الترك، فأقنع (عارف) واحداً وعشرين أسيراً عربياً بالهرب معه من المعتقل للانضمام إلى صفوف الثورة العربية الكبرى، وسلكوا طريق منشوريا - اليابان - الصين - الهند - مصر عن طريق البحر الأحمر. وخلال هذه الرحلة الشاقة الطويلة كانت الهدنة قد أعلنت... وعقدت الهدنة في 30 تشرين الأول من عام 1918. (31)

هذه الفقرة مأخوذة كما يبدو، مع تعديلات بسيطة من سيرة العارف الموجزة التي كان نشرها في سنة 1964. (32) والملاحظ أن النصين أغفلا أي إشارة إلى البلاشفة، أو إلى ثورة أكتوبر التي أشار إليها الكاتب في مذكراته الأقدم. وأحداث الهروب من سيبيريا يجب أن تُقرأ في سياق الفوضى التي اجتاحت معسكرات الاعتقال الروسية بعد إسقاط الحكم القيصري، والتي تزامنت مع رواية خروج المعتقلين العرب والأتراك من الأسر. ففي نص عارف اليوتوبي ("رؤياي") الذي كتبه سنة 1918، يشير الكاتب إلى مشقات الحياة في كراسنويارسك، ثم يضيف هذه الفقرة التي اختفت في الكتابات اللاحقة كلها عن مرحلة سيبيريا:

تلك كانت حالنا في عهد القيصر نقولا الثاني، وقبل أن تنشب الثورة البلشفية التي عمت البلاد من أديانها إلى أقصاها... وعمت من جرائها البلوى، وساد الخوف، وأصبحت الأمور فوضى لا سانس لها ولا زاجر... فاضطرونا للعمل والتحطيم في الحراج والغابات لنكتسب قوتنا اليومي. ومكثنا على هذه المنوال إلى أن أتتنا أخبار الثورة العربية وانتفاض الحسين بن علي على الأتراك (رؤياي 1918). (33)

هنا مكان الصورة السابعة

وتؤكد ابنة العارف في ذكرياتها عن حياة أبيها هذا السياق للهروب الذي حدث "حين استولى البلشفيك على السلطة" (34) وتضيف إليها أحاديث العارف عن اعتقال القيصر نقولا الثاني وأفراد عائلته وإعدامهم في منطقة قريبة من معسكر الاعتقال في كراسنويارسك. (35) ومن المفيد أن نتحرى هذا النقص في الرواية لأنه ذو صلة قوية بالتحول الذي طرأ على الفكر القومي لعارف، وبقطيعته مع التيار العثماني، وهي مرحلة بدأت، باعتقادي، في عملية الفصل الإثني بين الأتراك والعرب في المعتقل، وفي إصداره جريدته السرية "ناقة الله". فخلال سنتي 1917 و1918 انهارت السلطات الإدارية في المجتمع الروسي، وانعكس ذلك على الأوضاع في السجون والمعتقلات حيث "كافحت المؤسسات التي كانت تعنى بشؤون أسرى الحرب للاستمرار في تقديم خدماتها ومعالجة أوضاع الآلاف من الأسرى الذين شردوا نتيجة انهيار النظام القيصري". (36) هذه إذا، هي الأحوال التي رافقت هروب الأسرى العرب، أو الذين حررتهم الثورة - إن شئت - للعودة إلى أوطانهم.

يرسم المؤرخ يانكيدياغ صورة أكثر تعقيداً، فيقول: "عندما استولى البلاشفة على السلطة أعلنوا أن أسرى الحرب أصبحوا أحراراً وضيوفاً على الشعب الروسي". (37) عندها حمل كثيرون منهم أمتعتهم وعادوا إلى بلادهم، بينما انضم آخرون إلى وحدات شيوعية خاصة أنشأها السوفييات لنشر الثورة في أوروبا وبلدان المشرق. وكان هنالك مجموعة ثالثة كان أفرادها، في معظمهم، من الضباط الأسرى، الذين اعتبرهم النظام الجديد "أعداء طبقيين"، فألغيت معاشاتهم واقتصرت مخصصاتهم على الطعام. (38) ويشير المؤرخ غاتريل إلى "صراعات فئوية في أوساط الأسرى، حيث انضم اليساريون منهم إلى الكتائب الحمراء، بينما انحاز آخرون إلى ما يسمى الميليشيات غير الطبقية". (39) وفي أوطان هؤلاء الجنود - وخصوصاً في النمسا وألمانيا - ساد الشعور بأن السجناء العائدين من روسيا يحملون "جرثومة الثورة". (40) ولم يكن هذا الخوف بلا مبرر على خلفية تشكيل البلاشفة للوحدات الخاصة في صفوف الجنود العثمانيين والألمان والنمساويين وغيرهم، والمكلفة الدعاية من أجل الاشتراكية. (41)

هنا مكان الصورة الثامنة

انضم كثيرون من الأسرى العثمانيين، مثل الصحافي مصطفى صبحي ورفاقه، إلى البلشفية، وأنشأوا الكتائب التركية الحمراء (تورك كيزيل آي) التي ضمت في أركانها نحو ألف مقاتل. (42) ويبدو أن قلة قليلة من العرب انضمت إلى هذه الكتائب، لكن عارف لا يذكر هذه المجموعة في مذكراته، إذ يبدو أن المسيئين بين المعتقلين العرب أتروا أن يلتحقوا بالثورة الحجازية، ويناضلوا من أجل استقلال الدولة العربية في سورية. وصل العارف إلى قناة السويس بعد خمسة أشهر على مغادرته ورفاقه كراسنويارسك، ثم اجتاز الحدود ودخل فلسطين في بداية الحكم العسكري البريطاني. وحين وصوله إلى البلد، ذهب مباشرة إلى دكان والده شحادة بيك في البلدة القديمة، فوجد أن عائلته فقدت الصلة بأخباره واحتسبته في عداد الأموات بعد ثورة أكتوبر. أما الأب فقد كبر وضعف بصره، وكاد ألا يتعرف على ابنه بعد هذا الغياب الطويل. (43)

انضم العارف في فلسطين إلى الحركة الفيصلية وأصبح عضواً في "النادي العربي" وهو امتداد للتنظيم العربي في دمشق، وكان يهيمن عليه أبناء القدس من النخبة العثمانية السابقة من عائلات أبو السعود، والبديري، والحسيني، والعلمي. وكانت أهداف النادي تتلخص في تحقيق وحدة سورية الطبيعية والكفاح ضد الصهيونية. (44) وكان "المنتدى الأدبي" منافسها في الحركة الوطنية، والذي أعيد تنظيمه من بقايا مجموعة المنتدى الأدبي العثماني في الأستانة - إلا أنه أصبح الآن ركناً من أركان الحركة الانفصالية. وكان عبد الكريم الخليل، مؤسس المنتدى ورفيق عارف العارف في إستانبول، قد أعدم مع الوطنيين العرب بأمر من جمال باشا في بيروت، الأمر الذي أدى إلى تعزيز القطيعة النهائية مع الحركة العثمانية. وفي تلك الفترة انتشرت فروع عديدة لكل من النادي العربي والمنتدى الأدبي في أنحاء فلسطين كلها، مع أن مركز الثقل للناديين كان في دمشق.

في القدس، ترأس المنتدى جميل الحسيني، وهو رفيق قديم لعبد الكريم الخليل، وكان من أعضائه البارزين فخري النشاشيبي (زعيم ميليشيات حزب الدفاع لاحقاً)، وبولس شحادة (صاحب مرآة الشرق)، وحسن صدقي الدجاني، وإسعاف النشاشيبي - أديب العربية. وفي هذين الناديين ظهرت بدايات الصراعات الفئوية داخل فلسطين بين الحسينية وآل النشاشيبي. (45) ومن المفارقات أن عارف العارف انضم، حين وصل إلى فلسطين، إلى النادي العربي لا إلى المنتدى الأدبي، التنظيم الذي انتسب إليه في إستانبول، والذي كان مسؤولاً عن بدايات وعيه العربي

حين كان ضابطاً في الجيش العثماني. والمرجح أن سبب هذا التحول يعود إلى التحالفات والاتجاهات الأيديولوجية التي كان يمثلها كل من هاتين المجموعتين بعد الحرب. ويجمع يهوشواغ بورات وبيان نويهض الحوت على أن المنتدى الأدبي كان على علاقة واهية برديفه العثماني الذي حمل الاسم نفسه. وكان جميل الحسيني من الأعضاء القلائل الذين جمعوا عضوية الاثنتين (46) وكان هذا المنتدى على اتصال (غير معلن) بالمصالح الفرنسية في سورية، لكنه مع هذا، كان يتبنى برنامج الوحدة السورية، وكان ضد فمصم فلسطين عن سورية.

أمّا النادي العربي، الذي نشط فيه العارف، فكان متحالفاً مع القوى البريطانية في الشرق الأوسط. وقد شكل هذا التحالف استمراراً للكفاح المشترك بين الإنكليز والهاشميين، وخصوصاً التنسيق المشترك في مرحلة جلاء الجيش العثماني عن فلسطين، وإعادة تنظيم الأوضاع السياسية في بلاد الشام (47) وفي هذا السياق اعتبر الإنكليز آل الحسيني في القدس، ولا سيما الحاج أمين الشخصية الريادية، من حلفائهم الجدد في فلسطين.

ومن المفارقة أيضاً، أن هذه الأدوار بدأت في الانعكاس في غضون ثلاثة أعوام، عندما تم استبدال الحكم العسكري البريطاني بسلطات الانتداب، فتحول الحسينيون إلى خصوم الإنكليز الرئيسيين، بينما أصبح آل النشاشيبي وحلفائهم، بزعامة راغب النشاشيبي، أقرب القوى السياسية إلى المصالح البريطانية في فلسطين. وهذه التحولات قد تفسر حماسة عارف في الانضمام إلى النادي العربي في بداية سنة 1918، وكذلك علاقته الوطيدة بآل الحسيني. وكانت تجربة العارف الكتابية في الصحافة العثمانية (جريدة "بيام")، وتحريره صحيفة "ناقة الله" في سيبيريا، ساهما في انخراطه سريعاً في العمل الصحافي الوطني، فاشترك مع حسن البديري في إصدار صحيفة "سورية الجنوبية" - لسان حال النادي العربي في فلسطين، وصدر العدد الأول منها في أيلول/سبتمبر 1919. لقد عبر اسم الصحيفة وافتتاحيتها عن دعم للوحدة مع سورية، وعن الافتراض (الذي سرعان ما تقوض في ضوء اتفاقيات سايكس بيكو) أن بريطانيا ستدعم هذه الوحدة (48) وكان شعار كل من الجريدة والنادي، كما ظهر في

**ترويسة الجريدة - بلادنا لنا - يشير إلى سورية الطبيعية لا إلى فلسطين فقط.**

لكن سرعان ما انقلبت "سورية الجنوبية" إلى أداة تحريض ضد الحكم البريطاني في فلسطين بعد انكشاف أهداف الانتداب، وظهر العارف، محرر الصحيفة، في عدة مناسبات وتظاهرات كداعية ضد وعد بلفور (تظهر الصورة المرفقة العارف مخاطباً جمهوراً غفيراً في شارع يافا في 27 شباط/فبراير 1920، حيث رفع المتظاهرون يافطة تحمل شعار "فلسطين جزء من جنوب سورية")، الأمر الذي أدى إلى تعطيل الجريدة عدة مرات، ثم إلى إصدار أمر باعتقال العارف بتهمة التحريض ضد الحكم العسكري. فر العارف إلى دمشق حيث مثّل القدس في المؤتمر السوري الأول، الذي أعلن فيصل ملكاً على "سورية الطبيعية". وفي هذه الأثناء، حكمت المحكمة العسكرية في القدس بالإعدام على عدد من الملاحقين الوطنيين بمن فيهم عارف العارف والحاج أمين الحسيني، ثم استبدل الحكم فيما بعد بالسجن عشرة أعوام.

التقى العارف حينذاك محمد عزة دروزة، وهو من زعماء حزب الاستقلال فيما بعد، وكان يشترك مع العارف في ولائه العثماني في أثناء الحرب: "تعرفنا به في دمشق حينما جاء مع الحاج أمين هاربين من مطاردة الإنجليز وتعاوننا معه في سبيل قضية فلسطين في نطاق جمعية فلسطين السرية التي أنشأها في دمشق، وقد لمحنا فيه روحاً قومية ثورية مع هدوء واتزان، وكان على درجة حسنة من الثقافة التركية والعربية." (49)

هنا مكان الصورة التاسعة

وفي دمشق تعاون العارف مع الحاج أمين في تأليف الجمعية الفلسطينية العربية (وهي امتداد لجمعية فلسطين السرية التي أشار إليها دروزة في مذكراته) في 31 أيار/مايو 1920، بزعامة الحاج أمين، وعضوية العارف ورفيق التميمي ومعين الماضي وإبراهيم عبد الهادي، الذين شكلوا لجنتها التنفيذية.

وكانت هذه هي اللحظة المفصلية التي افترق فيها النضال من أجل سورية الموحدة عن مصير فلسطين الانتداب (50) ويقع المسبب الرئيسي لهذا الانسلاخ عن فلسطين في الطريق الذي سلكه الأمير فيصل، ومعه جزء مهم من القيادة الدمشقية للحركة الاستقلالية، في التحالف مع المصالح البريطانية ضد الفرنسيين الذين كانت لها مطامعهم الخاصة في سورية، والذين عارضوا المملكة السورية المستقلة. ويشير رشيد الخالدي في تفسير هذا التحول العام إلى أن القيادة الفيصلية السورية بدأت تغض الطرف عن السياسة الصهيونية لبريطانيا، وعن تبني هذه الأخيرة وعد بلفور تحديداً، أملين بذلك أن تساندهم بريطانيا في صراعهم مع فرنسا في شأن معركة استقلال



سورية. ويضيف الخالدي: "رأى العديد من الفلسطينيين في دمشق في هذا الموقف خيانة للقضية العربية الكبرى، ولقضية فلسطين تحديداً، لصالح مصالح سورية ضيقة" (51) خلال أسابيع من تأليف الجمعية الفلسطينية العربية في دمشق، أصدرت السلطات عفواً عاماً شمل الحسيني والعارف، وسمح لهما بالعودة إلى فلسطين بعد إنشاء الحكومة المدنية الأولى بزعامة هريبرت صامويل - المندوب السامي الأول. وعن العودة، يقول دروزة: "عين الحاج أمين مفتياً وعين العارف قائماً مقاماً لبئر السبع، وتقلب في وظائف ومراكز عديدة طيلة مدة الانتداب، ولم يكن له مشاركة في نشاط سياسي". (52)

#### هنا مكان الصورة العاشرة

يتضح من الملاحظة الأخيرة - المشحونة بالمعاني - أن دروزة الذي استمر نضاله الدؤوب من أجل ضم فلسطين إلى سورية، حافظ على مودته للعارف واعتبره وطنياً صادقاً، إلا أنه في الوقت نفسه، قدر أن العارف اتخذ طريقاً آخر لحياته، وأذعن لفصل فلسطين عن بلاد الشام، وتأقلم مع الحكم الانتدابي الذي تبوأ فيه أعلى المراكز الإدارية التي كان يُسمح بها للموظفين العرب، فتدرج في قائمقاميات غزة وجنين ونابلس وبيسان انتهاءً ببيافا، ثم أعارته الحكومة الانتدابية لحكومة شرق الأردن (1926 - 1929)، وأصبح سكرتيراً للدولة في بداية تكوينها برتبة وزير، وشاهداً على أسرارها.

#### ماذا تبقى من العثمانية؟

عارف العارف معروف لدى الباحثين كمؤرخ للقدس العثمانية ("المفصل في تاريخ القدس" 1961)، وكتبه التاريخية الرئيسية ("تاريخ بير السبع وقبائلها" 1934؛ "تاريخ غزة" 1934؛ "تاريخ عسقلان" 1942)، وعمله الضخم الموسوعي عن النكبة (ستة أجزاء 1956 - 1960)، متوافرة للجمهور. إلا إن حياته في الفترة العثمانية، ودوره السياسي والصحافي المثير بعد الحرب، لا يكادان يُعرفان، ومصادرهما مغمورة، وقد حاولنا في هذه الدراسة أن نلقي بعض الضوء عليها، وعلى حقبة مفصلية في تاريخ فلسطين الحديث.

رافقت هذه الدراسة حياة الملازم عارف شحادة في رحلته الصعبة من القدس العثمانية في سنة 1908 - سنة الثورة الدستورية - مروراً بتخرجه من الكلية العسكرية السلطانية في الأستانة سنة 1913، وصولاً إلى اعتقاله ونفيه إلى سيبيريا حيث أمضى في معسكر الاعتقال معظم سنوات الحرب (1915 - 1918). وقد اهتدى العارف إلى وجدانه العربي في نشاط المنتدى الأدبي في العاصمة العثمانية، وكان الجدل حينذاك، على أشده في أوساط رفاقه العرب، في شأن مستقبل علاقة الولايات الشامية بالنظام الجديد في الأناضول. ونعود هنا إلى كلماته التي اقتبسناها في بداية هذه المرحلة: "ما عرفت أنني (عربي) وأنه يجب عليّ أن أفكر في مصلحة قومي العرب إلا عندما تأسس المنتدى العربي في الأستانة... ورحت أسمع في جنباته كلمات (العرب)، (العروبة)، (القومية)، (الوطن)". وطبعاً، كانت الثقافة العربية جزءاً من التكوين النفسي للعارف، لكنها لم تكن بعد جزءاً من أيديولوجيته القومية. وكان رفاقه في المنتدى ينتمون إلى عدة تيارات سياسية انبثقت من ثورة 1908، فمعظمهم كان في لجنة الاتحاد والترقي، وبعضهم انتمى إلى حزب اللامركزية العثماني، وقلّة انتمت إلى مجموعة "العهد" السرية، التي كانت تنظم الضباط العرب في الجيش العثماني من أجل الانفصال.

إلا إن هذا الوعي العربي المتبلور لم يمنع العارف من تواصله مع الفكرة العثمانية أو إخلاصه لها. فقد تطوع للقتال في صفوف الجيش الخامس الذي نقله إلى جبهة القفقاس، واكتسب، في أثناء اعتقاله في سيبيريا، معرفة دقيقة عن التجمعات العثمانية في المنفى من أكراد وبلقان وأتراك وعرب. كما عايش وصادق العشرات من الجنود والضباط الألمان والنمساويين الحلفاء، وأفاد واستفاد. وفي هذه الفترة الطويلة نسبياً، برزت الأوضاع الملائمة (السكن الانعزالي؛ التفرقة الإثنية؛ حرية التفكير بعيداً عن الانضباط العسكري)، والتي ساهمت في بلورة أفكاره من انتماء ثقافي إلى العروبة، إلى تبني أيديولوجيا قومية انفصالية.

في بداية الاعتقال سادت أجواء تضامنية في أوساط المعتقلين العثمانيين، عززها انتماء الجنود الإسلامي، وكذلك الشعور بالعداء من المجتمع المحيط بالمعسكر، فالصيام في رمضان سيبيريا مثلاً، خلق أجواء تعاضدية بين مختلف المجموعات من العثمانيين، كما أنه في نهاية سنة 1915 احتفل الجنود، برفقة حلفائهم الألمان

والنمساويين المعتقلين، وفي حفلة شاي مشتركة، بانتصار الجيش العثماني الباهر على أعدائهم في معركة غاليبولي (53) إلا أن أجواء الألفة هذه بدأت في التراجع مع نهاية سنة 1916، وساهمت التطورات السياسية في الأناضول، وخصوصاً نمو تيار التتريك داخل قيادات حزب الاتحاد والترقي، في اضمحلال الهوية العثمانية في أوساط الجنود العرب. وساعدت ثلاثة عوامل على حسم هذه العلاقة بصورة أكثر مباشرة: الأول، هو التفريق السكاني بين المجندين العرب والأتراك في المعتقلات الروسية، وكذلك اتباع سياسة المحاباة تجاه الضباط العرب؛ الثاني، انتشار المطبوعات والأدبيات التي أذكت الشعور القومي مثل صحيفة "ناقاة الله" السرية؛ أخيراً، وقد يكون هذا العامل أهم العوامل، هو اندلاع الثورة العربية في الحجاز وما تبعها من هزائم العثمانيين العسكرية في غزة والسويس وجنوب العراق (كوت العمارة). وهكذا، عندما عاد العارف إلى فلسطين كان قد حسم آراءه في شأن ضرورة الانفصال عن الآستانة وإنشاء دولة عربية مستقلة. على الأقل هذا ما عبر عنه لاحقاً عن هذه الفترة من حياته. لكن الأغلب أن هذا الانقطاع كان تدريجياً ومتذبذباً، وخصوصاً أن طبيعة هذا الكيان العربي الجديد وحدوده لم تكن قد اتضحت بعد. كما أن خيانة الفرنسيين والبريطانيين للوعود التي كانوا قطعوها لحلفائهم العرب الحجازيين والسوريين بقيت ماثلة للأعين، ولا سيما بالنسبة إلى الفلسطينيين الذين فرضت عليهم مجابهة مشروع الوطن القومي لليهود بمعزل عن رفاقهم السوريين. وكان هذا العامل وحده كافياً لجعل كثيرين من المثقفين العرب يعيدون النظر في القطيعة مع النظام العثماني ولو على سبيل الحسرة، ذلك بأنه في خلال سنتين بعد نهاية الحرب كان القوميون الأتراك قد حسموا، من جانبهم، المصير المشترك للدولة التركية في علاقتها بالولايات العربية.

كانت معضلة العارف شبيهة بمعضلة ساطع الحصري الذي كان من أهم المناصرين في الولايات الشامية لمساواة المواطنين العرب في الحقوق ضمن دولة عثمانية كونفدرالية تحت قيادة الاتحاد والترقي. فعلى غرار العارف، كان الحصري بليغ التحدث والكتابة باللغتين العربية والتركية، كما عبر في كتاباته الأولى عن ازدواجية الهوية العربية - التركية في ظل الدولة العثمانية الواحدة. وخلافاً لأنصار دولة الخلافة في إستانبول (من أمثال الشيخ أسعد الشقيري في عكا، والمؤرخ النابلسي إحسان النمر) أيّد الحصري والعارف - ومن دون أن يلتقيا - هوية عثمانية علمانية تستمد رؤياها من الفكر الأوروبي الليبرالي (الفرنسي في حالة الحصري والألماني في حالة العارف). نتج من هذه المواقف غموض وتردد بشأن الانفصال عن العثمانيين خلال سنوات الحرب وبعدها مباشرة - وهو موقف لا نجده في مذكراتهما وكتاباتهما اللاحقة إذ تبدو هذه القطيعة كأنها تحصيل حاصل. وكان الحصري قد عبر بطريقته عن هذا الغموض في مقابلة أجراها في شيخوخته حين قال في شيء من التردد: "كنت عربياً وعندما انفصل العرب عن السلطنة العثمانية، لم يكن عندي خيار إلا أن أنضم إليهم" (54) فهو يتكلم كأنه أُجبر على هذا الاختيار. ومع ذلك استمرت بقايا العثمانية حية في أذهان العديد من هؤلاء المفكرين القوميين، ومن سماتها أهمية اللغة واستعمالاتها. ففي ربيع سنة 1934 مثلاً، وبعد ثلاثة عقود من انضمام العارف إلى الجيش الخامس للقتال في الجبهة الروسية، تلقى العارف، وكان حينذاك قائمقاماً في غزة، رسالة حب من زوجته صائمة (أم سفيان)، تشكوه فيها وحدتها في القدس، وشوقها إلى رؤيته قريباً، وقد كتبت: (55)

صبا حلين ايركن أوما ندم. باعجربة ايندم. براز دولاشدم. برازده صيچك قوماردم. دكز باعجربة نقل اولوم. بريمكك لوبيه طويلادم. بن دولا شيركن هب فكريده سن بجوردك. سنسزهج برش كوزلى وكل. باعجربة تزين ايدن سنسك. مكر سنسزهج برسيدة لذة يومد. الله من باشمدن اكسيك اينمه سون. بوتون حيا تمزى كوزل ايدن سنك وجودك. بزون حركت ايتد يكك زمان براز نزله ايدك. فكرم شغول. رجا ايد بن تظمين ايت... سن بتون قليله سوه رفيقه حياتك. صائمة

هنا مكان الصورة الحادية عشرة

الفريد في هذه الرسالة هو لغتها، فقد كتبتها أم سفيان بالتركية العثمانية، وهي لغة اختفت وغابت عن الاستعمال بعد الإصلاحات اللغوية القسرية لمصطفى كمال. إلا أن العارف وزوجته واطبا على التراسل بالعثمانية، ربما لكتمان ما يفصحان عنه في خصوصيتهما، لكن أيضاً لأنها لغة الثقافة التي شبوا عليها في القدس وإستانبول، وأصبحت جزءاً من تراثهم الحضاري.

انتمى العارف إلى نمط من الكتاب السياسيين كاد يختفي من الوجود. فقد انحدر جيله من مثقفي العثمانية الذين خاضوا تجربة الصحافة العامة، وخدمة الدولة والانخراط في الحياة العسكرية، ثم جاءت الحرب العظمى لتقوض

عالمه هذا، وفرضت عليه إعادة النظر في انتماءاته كلها. إلا إن هذا التحول لم يكن جذرياً بالشكل الذي كتب عنه العارف في فترة الانتداب، وأغفل ما فيه من تواصل ملحوظ، ذلك بأن تجربته الصحافية في إستانبول كانت مقدمة مهمة لتحرير جريدة "سورية الجنوبية". والجدل الفكري الذي خاضه في نوادي الأستانة الأدبية والسياسية شكل قاعدة جيدة للنشاط السياسي الذي انخرط فيه في دمشق خلال الحكم الفيصلي، وفي فلسطين ضد وعد بلفور. إلا إن هذه المواجهات سرعان ما تجاوزتها المعايينة لأحوال الانتداب الجديدة، ولتشرذم المشرق العربي، كجزء من إمبراطورية عثمانية واحدة ودولة عربية واحدة، إلى الكيانات التي أنتجها سايكس بيكو، ولانحسار التيار القومي العربي السوري في نضالات فلسطين الانتداب من أجل استقلال إقليمي. وتكمن مفارقة تجربة الاعتقال السيبيري في حياة عارف العارف في أنها وفرت حيزاً من الحرية سمح له (خلال سنوات الاعتقال الثلاث) بأن يبحث في خياراته السياسية المستقبلية في ضوء ماضٍ عثماني ما عاد له المعنى نفسه. وهي تجربة لم تتح لمعظم رفاقه من مدنيين وعسكريين كي يخوضوها.

### حول مصادر منفي عارف العارف في سيبيريا

هنا مكان الصورة الثانية عشرة

إن المصادر العثمانية والعربية فيما يتعلق بمصير معتقلي الحرب العظمى ضئيلة ومعظمها غير متوافر، ولهذا اضطررنا إلى أن نستعاض عن غياب الأرشيف بمذكرات الجنود والضباط الذين عاشوا هذه التجربة. أما أوراق عارف العارف فهي غنية بتفصيلاتها، وتغطي فترات واسعة، إلا إن معظمها - ولا سيما ما يتعلق بالفترة العثمانية والروسية - غير متوافر للباحثين، بما في ذلك المخطوطة المعنونة "سنوات في سيبيريا". وتضم مجموعة صور العارف في جمعية إنعاش الأسرة شذرات من يومياته في سيبيريا وتحتها تعليقات مستفيضة، كما تحوي مانشيت جريدة "ناقة الله" المرفقة مع هذه الدراسة. علاوة على ذلك، تتضمن المقدمة الأولى (سنة 1918) لكتاب "رؤياي"، سرداً لتجربة الكاتب في المعتقل الروسي، وهناك صيغة أخرى منها في "موجز سيرته" المذكور أدناه. وفيما يلي أهم هذه المصادر:

- (1) عارف العارف، "أيام في سيبيريا: مذكرات"، غير منشور وغير متوفر، لكنه مدرج في لائحة مؤلفاته في حيازة عائلة الكاتب.
- (2) عارف العارف، الألبوم الفوتوغرافي، مع تعليقات. جمعية إنعاش الأسرة. غير منشور. يحوي صوراً عائلية ولقطات من حياة المؤلف في سيبيريا وإستانبول.
- (3) "مراسلات الأسير العثماني الملازم عارف شحادة في كراسنويارسك (سيبيريا) مع عائلته في القدس الشريف"، في: إسكندر زفي (محرر)، "عثماني صحرا بوستلاري: فلسطين 1914 - 1918" (إستانبول: تركية تاريخ وقفي، 2000).
- (4) عارف العارف، "موجز سيرته: 1892 - 1964" (القدس: دار المعارف، 1964).
- (5) عارف العارف، "رؤياي (1918)" (القدس: لا ناشر، 1943، ط 1؛ بيروت: دار الريحاني، 1957، ط 2 مع مقدمة جديدة).
- (6) عارف العارف، "مذكرات: ثلاث سنوات في عمان (1926 - 1929)"، مخطوطة غير منشورة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية).
- (7) عارف العارف، "يوميات غزة 1934 - 1936"، مخطوطة غير منشورة مع حواشٍ أضافها المؤلف في الستينيات (لندن: كلية سانت أنتوني؛ جامعة أكسفورد؛ مركز دراسات الشرق الأوسط). ■

(\*) مدير مؤسسة الدراسات المقدسية.

### المصادر

أعبر عن امتناني للسيدة فريدة العمدة العارف التي أتاحت لي فرصة الاطلاع على بعض أوراق عارف العارف، وخصوصاً مجموعته الفوتوغرافية في إستانبول وفي المعتقل السيبيري، وكذلك إلى يوجين روجن ودبي أشر، في

كلية سانت أنتوني في جامعة أكسفورد، اللذين سمحا لي بالاطلاع على مذكرات عارف العارف. كما أشكر سيبيل الصائغ (الإسكندرون) ومنى جوفينش على ترجمة النصوص التركية.

- (1) ساطع الحصري (أبو خلدون)، "يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث" (بيروت: دار الاتحاد، 1965).
- (2) يرد اسم الكاتب هنا في صيغتين: عارف شحادة في فترة الحرب العظمى وفترة الدراسة في إستانبول، وهو الاسم الذي كان يشتهر به، ثم عارف العارف بعد عودته إلى فلسطين وسورية.
- (3) Muhammad Y. Muslih, *The origins of Palestinian Nationalism* (New York: Columbia University Press, 1988).
- (4) عارف العارف، "موجز سيرته 1982 - 1964" (القدس: دار المعارف، 1964)؛ يعقوب العودات، "من أعلام الفكر والأدب في فلسطين" (عمّان: وكالة التوزيع الأردنية، 1976).
- (5) العودات، مصدر سبق ذكره، ص 406.
- (6) المعلومات عن أعوامه الأولى مشتقة من: العارف، مصدر سبق ذكره.
- (7) العودات، مصدر سبق ذكره، ص 400؛ عارف العارف، "رؤياي (1918)"، مقدمة الطبعة الأولى (بيروت: دار الريحاني، ط 2، 1957). وجميع الاقتباسات من الطبعة الثانية.
- (8) فيما يتعلق بتفصيلات التيارات الفكرية في النادي العربي في إستانبول، راجع: Muslih, op. cit.
- (9) العودات، مصدر سبق ذكره، ص 405.
- (10) المصدر نفسه، ص 400 - 401.
- (11) فيما يتعلق بدور عبد الكريم الخليل وعلاقة النادي العربي بحزب اللامركزية، راجع: سهيلة الريماوي، "حزب اللامركزية الإدارية العثمانية"، في: ناجي علوش، "الحركة العربية القومية في مائة عام 1875 - 1982" (عمّان: دار الشروق، 1997)، ص 120 - 123.
- (12) عارف العارف، "موجز سيرته..."، مصدر سبق ذكره، ص 302. إلا إن المعركة الكبيرة في أرضروم، والتي حسمت الحرب بين العثمانيين والجيش الروسي بقيادة الغراندوق نقولا لم تجر إلا في 16 شباط/فبراير 1916. وقد يكون العارف يشير إلى معركة فاصلة أخرى، أو أنه أخطأ في التاريخ لأنه كتب من الذاكرة.
- (13) العارف، "رؤياي..."، مصدر سبق ذكره.
- (14) Yücel Yanikdag, "Ottoman Prisoners of War in Russia, 1914-1922", *Journal of Contemporary History*, vol. 34, no. 1 (1999).
- أما بالنسبة إلى إحصائيات ضحايا معسكرات الاعتقال، فراجع:  
Peter Gatrell, "Prisoners of War in the Eastern Front during World War 1", *Kritika: Explorations in Russian and East Eurasian History*, vol. 6, no. 3 (Summer 2005), p. 562.
- (15) Gatrell, op. cit., pp. 556-557.
- ويعالج غاتريل هنا أوضاع المعتقلين الألمان والنمساويين فقط.
- (16) العارف، "رؤياي..."، مصدر سبق ذكره، ص 4.
- (17) المصدر نفسه. وقد أصدر العارف صحيفة "ناقة الله" بالاشتراك مع رفيقه الضابط السوري أحمد الكيالي.
- (18) أعيدت طباعة هذه الرسائل في: "عثمانلي صحرا بوستلاري" (إستانبول: تاريخ وقفي، 2000).
- (19) Gatrell, op. cit.
- (20) استخدم هذا التعبير الكاتب النمساوي هييميتو فون دوديرير، واقتبسه غاتريل، ص 563.
- (21) Yanikdag, op. cit.
- (22) Gatrell, op. cit., p. 561.
- (23) Yanikdag, op. cit., p. 73.
- (24) Ibid., p. 77.
- (25) Ibid., p. 75.
- (26) Ibid., p. 74.

- (27) Ibid., pp. 76-77.
- (28) Ibid., p. 77.
- (29) سورة هود، 45. وفيما يتعلق بتفصيلات المرجع القرآني لناقة الله، راجع موقع: "الإحساس" [www.ahsas.net](http://www.ahsas.net)، كما ظهر في أيلول/سبتمبر 2008.
- (30) Yanikdag, op. cit., p. 77.
- (31) العودات، مصدر سبق ذكره، ص 401.
- (32) العارف، "موجز سيرته..."، مصدر سبق ذكره، ص 3.
- (33) العارف، "رؤياي..."، مصدر سبق ذكره، ص 5. وينسب العارف أخبار الثورة إلى رسالة وصلتته في المعتقل من رشيد رضا، محرر صحيفة "المنار" في القاهرة، يخبره فيها أن مجموعة من رفاقه في مرحلة الدراسة في الأستانة، انضمت إلى ثورة الشريف حسين، وكانت حينذاك في سبيل محاصرة المدينة المنورة.
- (34) فريدة العارف العمدة، "عارف العارف، أبا"، "التراث والمجتمع"، رقم 41، تموز/يوليو 2005.
- (35) المصدر نفسه.
- (36) Gatrell, op. cit., p. 564.
- (37) Yanikdag, op. cit., p. 80.
- (38) Ibid.
- (39) Gatrell, op. cit., pp. 564-565.
- (40) Ibid., p. 565.
- (41) فيما يتعلق بتأثير الثورة البلشفية على التيارات السياسية في أوساط المعتقلين، أنظر: Ibid., p. 564.
- (42) Yanikdag, op. cit., p. 81.
- (43) راجع تفصيلات هذا اللقاء في: العمدة، مصدر سبق ذكره.
- (44) بيان نويهض الحوت، "القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1907 - 1948" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981)، ص 86 - 87: محمد عزة دروزة، "المذكرات" (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993)، المجلد الأول، ص 326.
- (45) Muslih, op. cit.
- (46) الحوت، مصدر سبق ذكره، ص 87.
- (47) المصدر نفسه، ص 86 - 89.
- Porath, Yehoshua, The Emergence of the Palestinian Arab National Movement, 1919-1929 (London; New York: Frank Cass, 1974), pp. 74-77.
- (48) راجع على سبيل المثال افتتاحية "نظرة إلى الغد" (غير موقعة، وهي على الأغلب من تأليف المحرر عارف العارف)، "سورية الجنوبية"، المجلد الأول، العدد 48، القدس، 26 آذار/مارس 1920 (6 رجب 1338).
- (49) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص 326 - 327. ويبدو أن دروزة يشير هنا إلى الجمعية العربية الفلسطينية التي كانت تنشر بيانات ضد الصهيونية في دمشق حينذاك. أنظر أيضاً:
- Porath, op. cit., p. 88.
- (50) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص 326.
- (51) Rashid Khalidi, The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood (Boston: Beacon, 2007), pp. 96-97.
- (52) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص 326.
- (53) Yanikdag, op. cit., p. 74.
- (54) الياس سحاب، "ساطع الحصري: المفكر والداعية والنموذج"، في: ناجي علوش، مصدر سبق ذكره، ص 409.
- (55) هذه هي الترجمة العربية لنص الرسالة:
- قمت صباح اليوم باكراً وذهبت أتمشى في الحديقة. قطفت بعض الزهور ثم رميتها. طول الوقت وأنت على بالي. يتراءى لي أنك أنت الذي يضيف الجمال على هذه الحديقة. من دونك لا شيء في حياتي له نكهة. الله لا

يحرمننا من وجودك. عندما غادرتنا في رحلتك الأخيرة شعرت ببعض الجفاء منك. أفكر فيك طول الوقت. أرجوك أن ترسل لي أخبارك دائماً... صديقتك وشركة حياتك التي تحبك من كل قلبها، "صائمة".

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)